(٨٠)

"أنانية"

كانت طفلة صغيرة عندما قدمت إليهم من قريتها الفقيرة. كانت فى سن اللعب والمرح واللهو والمتعة، ومع ذلك وجدت نفسها فجأة تقيم فى منزل غير منزلها، ومع أناس لا تعرفهم، بعيدة عن أمها وأخواتها وجيرانها. قال لها خالها وهو يأخذها تحت ذراعه: "اسمعى الكلام يا بنتى .. وما تزعليش حد منك". فنظرت إليه فى اندهاش ولم تكمل نظرتها له حتى وجدته قد اختفى من أمام عينيها لتجد نفسها وحيدة فى مكان غريب عليها.

كان أهل ذلك المنزل طيبين كفاية معها، ويعاملونها برفق وحنان نظرًا لصغر سنها، حتى أنها كانت تلعب وتلهو فى أحيانٍ كثيرة مع بنات صاحب المنزل اللاتى كن فى مثل عمرها تقريبًا. ولم يكن لعبها أو لهوها يستمر لفترة طويلة إذ كانت ما أن تبدأه حتى تطلب منها صاحبة المنزل طلباتها اليومية المعتادة واحدًا تلو الآخر. ولم يكن فى مقدورها سوى أن تنفذ وصية خالها فلا تعصى أمرًا لأحد، أو تتذمر من أى عمل تؤمَر بتأديته، أو يكون لها رفاهية أن تصحو من نومها بلا عملٍ مطلوب منها إنجازه على نحو مرضٍ لمن طلبه منها. كانت لا تستطيع أن تخرج من المنزل إلا لشراء احتياجات الأسرة، ولم يكن من المسموح لها أن تذهب إلى الحدائق أو الملاهى إلا بصحبة أصحاب المنزل كخادمة لهم تؤدى لهم طلباتهم، لا كطفلة تشتاق للعب والمرح والجرى مثل كل الأطفال.

وذات يوم مرضت مرضًا لم يتصور أصحاب المنزل أنه مرض خطير، فتهاونوا فى العناية المبكرة بها، وطُلِب منها أن تكتم آلامها وألا تظهِر أوجاعها علانية حتى تستطيع القيام بعملها الذى اعتادت عليه كل يوم. وبمرور الأيام خارت قواها، ولم يعد لديها المزيد من قوة التحمل، فانطلقت منها صرخات آلامها كالرصاص المسجور، فملأ المكان بدويٍ لا ينقطع، معلنًا نفاذ صبر الطفلة التى فاقت آهات مرضها كل توقع بشفائها إذا لم يتم عرضها على الطبيب فى الحال.

وكانت المفاجأة أن الطفلة مصابة بمرضٍ عضال، وتحتاج للإقامة فى العناية المركزة مما سيتطلب مبالغ مالية باهظة لم تستطع أسرتها الفقيرة تحملها، ولم تتطوع الأسرة التى استخدمتها بدفعها لها، فكانت النتيجة أن خرجت الطفلة الصغيرة من المستشفى إلى منزل والدتها، الذى عادت إليه أخيرًا مثلما كانت تحلم دائمًا، ولكن للأسف دخلته هذه المرة بلا حراك. فقد تمكن المرض من جسدها النحيل ولم تعد لديها أية مناعة لمقاومته والتغلب عليه، فسقطت صريعته وصريعة قلوب اعتقدت طوال فترة خدمتها لأصحابها أنها قلوب حنونة عليها ورحيمة بها، ولكنها فى الحقيقة كانت قلوبًا لا تعرف معنى الرحمة إذ حرمتها مرةً من طفولتها مقابل منفعتهم الشخصية، ولم تعرف معنى الشفقة مرة أخرى وهى تتخلى عن علاج مرضها الذى كان سببًا فى موتها والذى كان فى نفس الوقت سببًا فى خلاصها مبكرًا من شقاءٍ كانت ستعيش فيه طوال حياتها.